جدل حول :

الخوارج وقضية التحكيم

دكتور محمود اسماعيل عبد الرازق
مدرس بكلية الآداب — جامعة عين شمس

يمثل الخوارج فى نظر مؤرخى الفرق الإسلامية كل من خالف أو خرج على الخلفاء والأئمة سواء فى عصر الراشدين أو فى العصور التالية(١) ؛ باعتبارهم مارقين على رأى الجماعة الإسلامية التى اتفقت على اختيارهم . لكن هذا التفسير اللغوى لا يستقيم مع التعبير الاصطلاحى الذى يخص بتلك التسمية جماعة أو فرقة إسلامية بعينها ؛ أو بالأحرى حزبا سياسيا دينيا معينا ؛ فإلى جانب الخوارج وجدت جماعات وأحزاب أخرى خرجت عن طاعة الخلفاء والأئمة .

فقد اصطلح على إطلاق لفظة الخوارج على تلك الجماعة التى شايعت عليا بن أبى طالب فى نزاعه مع معاوية بن أبى سفيان ثم خرجت عليه إبان حادثة التحكيم المشهورة وهى التى عرفت أيضا بالحرورية نسبة إلى كورة حروراء — بجوار الكوفة — حيث لاذت بها بعد مفارقتها إياه(٢) . وإذا كان من المحقق أن الخوارج أطلقوا على أنفسهم اسم « الشراة » اعتقادا بأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، أو باعوا أنفسهم فى سبيل الله(٣) فليس من المستبعد أن يكونوا هم أيضا الذين سموا أنفسهم « خوارج » — كما ذهب

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٠٥ .
(٢) الإسفرائينى : التبصير فى الدين ص ٤٦ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٧٥ .
(٣) Smith : The Ibadites; Muslim World, Vol. 12, P. 284.

دوزى(١) ـ استنادا على قول زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي « ... فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البــدعة المضلة (التحكيم) والأحكام الجائرة »(٢) .

والدارسون يذهبون مذاهب شتى فى تفسير ظهور الخــوارج ، وهى فى الغالب تستند على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية . ونحن لا ننكر أهمية الدوافع الاقتصادية والاجتماعية فى إجلاء غوامض التاريخ الإسلامى ، وهو أمر عول عليه كثير من المستشرقين من أمثال بارتولد وبيكر وكايتانى وماسينيون وبرناردلويس(٣) ، إلا أن الفهم الموضوعى لعصر النبوة والراشدين لا يتم دون وضع العامل الدينى فى الاعتبار . فظهور الخوارج مرتبط حقا بمسائل السياسة والحــكم ، وأيضا بالتطــور الاقتصادى والاجتماعى الذى عم العالم الإسلامى بعد الفتوحات ، لــكن ذلك كله كان يجرى فى إطار دينى وفى مسوح إسلامى .

نفصل ذلك فنقول إن من المؤرخين من ذهب إلى أن ظهور الخوارج يعبر عن رغبة القبائل العربية من غير قريش فى إقصائها عن التشبث بالخــلافة والاستئثار بالحــكم(٤) ، فالخوارج من هــذه الزاوية حزب سياسى وحسب(٥) ، وحركتهم

---

(١) Spanish Islam, P. 39.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : Lewis, B : Some Observations on the Sgnificance of hersey in the hitovy of Islam, Studia Islamica, 1, P. 46.

(٤) Muir, W : The Galiphate; itrrise, decline and fall, P. 281.

(٥) سهير القلماوى : أدب الخوارج فى العصر الأموى ، المقدمة ، ص هـ .

تمثل ثورة ديموقراطية ضد الارستقراطية التيوقراطية الجديدة من كبار الصحابة(١) فهم لذلك « جمهوريو الإسلام»(٢) « ودستوريو الإسلام »(٣) .

ومن المؤرخين(٤) من غلب العامــل الاقتصادى الاجتماعى ، فرأوا فى ظهور الخوارج انتفاضة لعرب البادية الذين استوطنوا الـكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى فهؤلاء — وخاصة من كان منهم من قبيلة تميم — كانوا قبل الاسلام يعيشون فى فقر مدقع ، ولم تتحسن أحوالهم كثيراً فى ظل الاســلام بينما كانت القبائل الأخرى تنعم بالثراء وترفل فى الترف ، فامتلأت قلوبهم حقــدا وغيظا ، وزاد فى ثورتهم تمسكهم الشديد بالتقاليد والطبائع البدوية كالتعصب للقبيلة والولاء لها ، فبغضوا الحـكومـة السياسية وتمردوا على نمط الحياة الاجتماعية فى ظلها ، فثورتهم من ثم « تمثل ثورة البدو على سيادة الدولة»(٥) .

وثمة رؤية ثالثة(٦) تجمع بين الاتجاهين السابقين ، مؤداها أن بدو تميم احتدمت بينهم فـكرة الخروج على نظام الخلافة القائم ، ورغبتهم فى الدعوة إلى نظام جديد للخلافة تعبر عن تطلع العرب من غير أهل الحجاز فى عدم التقيد بالخضوع لقريش.

---

(١) انظر :
Biquet, F : Hietoire de L' Afrique Septentrionale Sous la domination musulmane. P. 35.

(٢) Smith : Op. Cit P. 279.

(٣) Faroughy, A : A Persian dynasty in North Africa, The Rustumides; The Islamic Review, April, 1952. P. 12.

(٤) راجع : محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ١٠٤ ، عمر أبو النصر : الخوارج فى الإسلام ص ١٨ .

(٥) Lewis : Op. cit P. 47.

(٦) انظر : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ٢ ص ١٣٥ .

لكن الملاحظ أن الخارجية لم تكن حكراً على قبيلة تميم وحدها ، صحيح أن غالبية الخوارج الأول كانوا من تميم(١) ، إنما منهم أيضا من انتمى إلى القبائل الأخرى كبكر وهمدان والأزد وغيرها(٢) . بل وقفت بعض بطون تميم من الخوارج موقفا عدائيا ، وبطش بعض رجالاتها بزعامات الخوارج من بنى جلدتهم ، كعباد بن علقمة الذى قتل أبا بلال مرداس الخارجى(٣) ، وحرموز بن الهجاءة قاتل أخاه قطرى أحد زعماء الأزارقة(٤) ، ومعقل بن قيس الرياحى قضى على حركة المستورد ابن علفة وسفك دمه(٥) ... الخ . معنى ذلك أن نزعة العصبية عند الخوارج كانت أقل خطرا وأهون شأنا من الرأى والمذهب(٦) ، وحسبنا دخول كثير من الموالى فى مذهبهم وعملهم جنبا إلى جنب مع العرب على نصرته .

كما أن الهدف السياسى — لذاته — لم يكن محور نشاطهم وغاية مرامهم ، وفى ذلك يقول ابن خلدون (٧) « ... الخوارج المستميتون فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ، ولم يتم أمرهم لمزاحمتهم العصبية القومية » .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ ص٥١٦ ، ابن خلدون : العبر جـ٣ ص١٤٥ ، Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. XXXII, Brockelman, k: History of the Islamic People. P. 70.

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٤ ، الدينورى : الأخبار الطوال ص١٩٧ ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٧٨ .

(٣) ابن حزم : المرجع السابق ص ٢٠٠ .

(٤) نفسه ص ٢٠١ .

(٥) نفسه ص ١٨٩ .

(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٧) المقدمة جـ ٢ ص ٦٩ .

لذلك نعتقد أن للعامل الدينى أثرا واضحا فى تطور تاريخ صدر الإسلام، ذلك أن الدين والدولة إذ ذاك شيء واحد، والجماعة السياسية انبثقت من الجماعة الدينية، وقد فطن إلى ذلك فلهوزن حين عالج تاريخ الخوارج والشيعة باعتباره تاريخ أحزاب سياسية دينية (١)، كذلك أكد برنارد لويس (٢) أن التاريخ الإسلامى حتى العصر الأموى كان فى جوهره تاريخ « حركات سياسية دينية »، ونفس النظرة تتضح عند طه حسين (٣) فى تناوله الفتنة الكبرى حيث ذكر أن « القدماء نظروا إلى جميع الأحداث التى كان منها عيب عثمان والاختلاف عليه نظرة دينية خالصة، كما نظر إليها الذين عاصروا عثمان سواء منهم من خاصمه ومن ناصره .. ». وليس ادل على أن كافة المشكلات السياسية فى عصر الراشدين كانت ترى وفق منظور دينى من تمويل الأطراف المتنازعة على تكفير بعضها بعضاً (٤)، وتبادلهـــا الاتهامات بالمروق والهرطقة (٥). فمسألة الكفر والإيمان صارت من ثم أم المسائل التى عالجتها كافة الفرق الإسلامية.

ولا نزاع فى أن ماشجر من خلافات داخل الجماعة الإسلامية إنما دارت حول مسألة الإمامة أو الخلافة، خاصة وأن الرسول (ص) مات ولم يضع نظاماً ثابتا محددا لمن يخلفه فى حكم المسلمين. ولسنا بحاجة لعرض المشكلات التى نجمت عن

---

(١) وعنوان كتابه : أحزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الإسلام.

(٢) أنظر : أصول الإسماعيلية، المقدمة ص ٥.

(٣) أنظر : الفتنة الكبرى جـ ١ ص ١٧٥.

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٣٣٠.

(٥) Gautier : Les siecles obscurs du Maghreb, P. 260,
Bel : Lareligion Musulmane en Berberie, Vol. 1, p. 29,
Gibb : Mohammedanism, P. 110.

ذلك وهي مشكلات لا ننكر أن النعرات القبلية والأطماع الشخصية كانت تغذيها ، لكنها بوجه عام اتخذت طابعاً دينياً واضحا . فقد انبرى المسلمون يتلمسون في القرآن والسنة مخرجا ، فكثر الجدل والتأويل ، وتعددت الآراء وتشعبت ، وزعم كل طرف أن وجهة نظره هي الحق . ونجم عن ذلك كله ظهور الفرق الإسلامية التي كان خلافها فيما بينها « خلافا اجتهاديا في مسائل دينية ظنية » (١) ومالبث هذا الخلاف أن تحول إلى صراع دموي عبر عنه الشهرستاني(٢) بقوله « وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ماسل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة » .

وتأسيسا على ذلك ،نرى أن ظهور الخوارج مرتبط بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها ، وحتى أعداؤهم نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه(٣) ولم يكن بوسعهم إنكار حسن نواياهم في طلب الحق وصدق عزيمتهم في الموت دونه ، فلم يأخذوا عليهم أكثر من « إهمال النظر وإغفال التأمل بعين البصيرة والميل عن الحجة البحتة إلى الشبهة المهلكة » (٤) . بل إن فقيها مثل ابن عباس حين جادل زعماء الخوارج بالنهروان لم يحاجيهم بصحة موقف علي إلا على أساس أنه « ... ابن عم الرسول (ص) وصهره وعليهم نزل القرآن وهو أعلم بتأويله » (٥) . وشهد

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٨ ، ٧٩ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

(٣) ورد في حديث نبوي عن عبد الله بن مسعود أن « الخوارج أمة يذهبون يريدون الحق فيخطئونه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » أنظر : ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٩٨ ، ٩٩ ، مخطوط .

(٤) جعفر بن عبد السلام : إبانة المناهج في نصيحة الخوارج ، ورقة ١٥٤ ، مخطوط .

(٥) ابن حيون : المرجع السابق ورقة ٨٧ .

على نفسه بحسن نواياهم تلك حين نهى ــ قبيل موته ــ عن قتالهم من بعده لأن «من طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأدركه» (١) فكأنه بذلك لم يطعن في إيمانهم وإنما اكتفى بمهاجمة طريقة تنفيذهم لما أرادوا (٢) . ومن هنا يبطل الزعم بأن الخوارج هراطقة ، وأقصى ما يمكن أن يؤخذ عليهم تشددهم وتطرفهم في معتقداتهم (٣) .

أما وقد انتهينا إلى أن نشأة الجماعة السياسية في الإسلام انبثقت من الخلاف الفقهي الديني (٤) ؛ فإن ظهور الخوارج لم يشذ عن تلك القاعدة ، وحسبنا أن قضية التحكيم بين علي ومعاوية ــ وهي التي أسفرت ضمن ما أسفرت عن ظهور الخوارج كانت تكمن في مسألة فقهية دينية بحتة هي هل يجوز تحكيم البشر في أحقية إمام معترف به وببيعته ؟ أم لا ؟؟ . كانت إجابة أولئك الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد بالنفي بطبيعة الحال؛ ومن ثم انشقوا على علي وكفروه بنفس الدرجة التي كفروا بها عدوه معاوية ، فكانت عداوتهم للخصمين المتنازعين قائمة على أساس خروجهما عن جادة الشريعة ، وكان ظهورهم على مسرح الأحداث للعودة بالحق إلى نصابه .

ويتفق الدارسون على صعوبة البحث في تتبع نشأة الخوارج (٥) ، فمؤرخ تلك الحقبة « يمتحن أعسر الامتحان وأشقه » (٦) . ومكمن الصعوبة ليس في ندرة

---

(١) سهير القلماوي : أدب الخوارج ص ٣٢ .
(٢) نفسه ص ٣٣ .
(٣) Masqueray : Op. Cit. p. xv, Gibb : Op. cit. p. 110.
(٤) فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ص ١ .
(٥) سهير القلماوي : أدب الخوارج ، المقدمة ، ص هـ .
(٦) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ ٢ ص ٩٢ .

للمأمومات وشحنها ، إنما في وفرتها واضطرابها ، والمرء بوسعه أن يدين من يشاء ويبرىء من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة مايعينه . وهـذا في الواقع يعكس حقيقة هامة هي إيمان أطراف النزاع جميعا بعدالة مواقفها، وتفانيها في النضال للوصول إلى مراميها. فعلى بن أبي طالب لم يخامره الشك في أحقيته للخلافة وجدارته بها بعد وفاة النبي مباشرة ، واستند شيعته على كثير من الأحاديث النبوية لإثبات هذا « الحق المشروع » (١) ، ولا يخفى أنه كان آخر من بايع أبا بكر من كبار الصحابة ، كما سكت على مضض حين آلت الخلافة إلى عمر بعد أبي بكر ، وفاض كيله حين تحولت عنه إلى عثمان بعد عمر (٢) ، فخرج عن صمته ، وضرب بسهم في الفتنة التي

---

(١) أنظر : ابن حيون : أساس التأويل الباطن ، ورقات ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، مخطوط .

(٢) لانأخذ بما قاله الدكتور طه حسين بأن عليا بايع أبا بكر مخلصا . (انظر : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١٥٢) . فقد ذكر في مكان آخر أنه « كان معارضا للخلفاء الثلاثة » (أنظر : نفس المصدر ص ١٥٣) . مصداق ذلك ماجاء بإحدى خطبه « ... بعد وفاة الرسول ما كان يلقى في روعى ولا يخطر ببالى أن العرب تعدل هذا الأمر عنى ؛ فما راعنى إلا إقبال الناس على أبي بكر ؛ فأمسكت يدى ورأيت أنى أحق بمقام محمد في الناس ممن تولى الأمور ... فلما احتضر أبو بكر بعث إلى عمر فولاه ، فسمعنا وأطعنا وبايعنا وناصحنا ... فلما احتضر ؛ قلت في نفسى ليس يصرف هذا الأمر عنى ؛ فجعل الأمر شورى وجعلنى سادس ستة ؛ فخشوا إن وليت عليهم أن لا يكون لهم في هذا الامر نصيب ، فبايعوا اجتماع رجل واحد حتى صرفوا الأمر عنى لعثمان ، فأخرجونا منها وجاء أن يتداولوها حين يئسوا أن يتداولوها ، ثم قالوا لى هلم بايع عثمان وإلا جاهدناك ، فبايعت مستكرها ، وصبرت محتسبا ... »

راجع : ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢ ص٥٠ .

أدت إلى مقتل عثمان (١) ، وإحداث صدع فى كيان الإسلام (٢) . أما معاوية فقد أخذ على كاهله عبء الثأر لعثمان ، متخذا من تلك الدعوى تكئة لتبرير مطامعه فى الخلافه . ومهما قيل حول صدق نواياه فى طلب الموادعة لو أن عليا سلم له قتلة عثمان (٣) ، فلا شك فى تطلعاته المريضة خاصة بعد أن آلت إليه قيادة العثمانية بعد مقتل طلحة والزبير ، وهو أمر أذكى إصراره على مطاولة علي ومنافسته على الخلافة التى آلت إليه بالفعل «مغالبة» على حد قول ابن حزم(٤) . وإبان النزاع بين على ومعاوية برز الخوارج كحزب سياسى منشق رافض لدعاوى الشيعة والعثمانية، فكان خروجهم حسبما اعتقدوا طلبا للحق واحتسابا لله .

---

(١) انظر فى ذلك ما ذكره نصر بن مزاحم فى كتابه : أخبار صفين ص ١٠٥ ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٤ .

(٢) افترقت الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان — حسبما ذكر مؤرخ مجهول — إلى فرق ثلاث ؛ « فرقة قتلته ؛ وأخرى وقفت عنه وعن قتله ؛ وثالثة طالبت بدمه » ؛ فالفرقة القاتلة له تتمثل فى على بن أبى طالب وأصحابه من أهل المدينة والمهاجرين والأنصار ، والواقفة عنه تضم سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد؛ أما المطالبة بدمه فمن أقطابها طلحة والزبير ومعاوية . وقد عرفت الفرقة الأولى « بأهل الاستقامة » والثانية « بالشكاك » ، والثالثة « بالعثمانية » .

انظر : قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ؛ ورقة ٢٧ ؛ مخطوط .

(٣) نصر بن مزاحم : أخبار صفين ص ١٠٣ .

وفى خطاب من معاوية إلى على فى هذا الصدد قال معاوية « .... إن الخليفة عثمان قتل معك فى المحلة وأنت تسمع من داره الهيعة فلا تدفع عنه لقول ولا فعل ، وأقسم بالله لو قمت فى أمره مقاماصادقا فنهنهت عنه ما عدل بك من قبلنا من الناس أحدا وأخرى وأنت بها ظنين؛ ايواؤك قتلته ؛ فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك . وبلغنا أنك تبتهل من دمه ، فان كنت صادقا فأمكنا من قتلته نقتلهم به ؛ ونحن أسرع الناس اليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ... » أنظر : الطبرى : جـ ٥ ص١٦،الدينورى : ص١٦٢، ابن الأثير : جـ ٣ ص١١٥ .

(٤) نقط العروس ص ٥٦ .

وبديهي — حسبما سلف القول — أن يبادر كل حزب إلى تبرير موقفه ودعمه بقرائن وأدلة مستوحاة من القرآن والسنة ، صريحة أو مؤولة . وبديهي أيضاً أن يعمد مؤرخو كل طائفة إلى الانحياز والتعصب الكامل لطائفته ، فالمصادر السنية والشيعية على السواء منحازة في جانب علي على طول الخط في عرض حوادث صفين المثيرة ، ولدينا في هذا الصدد روايتان هامتان إحداهما لأبي مخنف والأخرى لنصر ابن مزاحم المنقري . ونعتقد أن وجهة النظر الأموية درست وذوت حين دون التاريخ في العصر العباسي ، ونقف على آثار منها عند البلاذري (١) . وإذا كانت المصادر السنية والشيعية تحمل على بني أمية وتزيف أخبارهم ، فإن حملتها على الخوارج أشد وأنكى ، فهم كفرة مارقون يجب بترهم ، وعليهم تقع مسئولية خذلان علي بإرغامه على قبول التحكيم ثم معاودة إرغامه على التنصل منه (٢). ومن الطبيعي ألا نقف على روايات معاصرة تحمل وجهة نظر الخوارج ، رغم وفرة ما صنفوه من تواليف حوت عقائدهم وسيرهم وأخبارهم وطبقات مشاهيرهم ، وهو ما ذكره ابن النديم في الفهرست ، فقد أبيدت كتب الخوارج وأحرقت على أيدي أعدائهم ، وما وصلنا من روايات متأخرة عن وقائع صفين لمؤرخين من الخوارج تتسم بطابع التحيز الشديد لأجدادهم ممن عرفوا « بالمحكمة الأولى » ، فتلقي تبعة التحكيم وما أسفر عنه على كاهل علي وتندد بضعفه وسوء رأيه . وهكذا نجد اضطرابا واضحا وخلطا شديداً يكتنف تاريخ حادثة خطيرة في صدر الإسلام ؛ ألا وهي حادثة التحكيم (٣) .

ولما كان ظهور الخوارج مرتبطا بتلك الحادثة ، ومحاولة الكشف عن أصولهم

---

(١) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، المقدمة ، ص ت ، ذ .
(٢) انظر الناصري : منهج المعارج لأخبار الخوارج ، ورقة ٦٢ ، مخطوط .
(٣) فلهوزن . تاريخ الدولة العربية ص٨٣ .

يلزم الباحث بالتعرض لمواقف أشخاص لهم فى نفوس المسلمين منزلة خاصة — وهو أمر يزيد البحث صعوبة — وجب أن نختط منهجا قوامه النوص وراء الحقيقة فى خضم الروايات المتعارضة بغض النظر عن تلك المكانة الخاصة لأولئك الذين شاركوا فى قضية التحكيم، ذلك أن «النتائج التى ترتبت عليها - كما يعتقد البعض -(١) أكبر وأوسع وأضخم من هؤلاء الأشخاص» .

وقضية التحكيم كانت ولا تزال مثار جدل بين المؤرخين ، قدامى ومحدثين، وقصتها متواترة فى كافة التواريخ الخاصة بصدر الإسلام . وما ينبغى إبرازه أولا تشكيك بعض الثقاة فى روايتى أبى مخنف والمنقرى اللتين شاعتا فى تاريخ الطبرى ومن أخذ عنه . فابن عربى (٢) يقول فى هذا الصدد «... هذا كله كذب صراح ، وإنما هو شىء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك» . كما نقف على نزعة التشكيك تلك فى الجدل والمساجلات الكلامية التى كانت تجرى — لزمن طويل — بين متكلمى الخوارج والشيعة (٣). ونفس الاتجاه نجده عن بعض المحدثين من أمثال يوليوس فلهوزن (٤) وفيليب حتى (٥) .

ومجمل القصة بصورتها الشائعة فى الرواية العراقية ، أن الخلاف بين على ومعاوية تفاقم حتى قامت الحرب بينهما فى صفين سنة ٣٧هـ ، تلك التى بدأت بمبارزات بين أنجاد المعسكرين

---

(١) انظر : طه حسين : الفتنة الكبرى ج١ ص ٤٩ .
(٢) القواصم والعواصم ورقة ٢٠٨ ، مخطوط .
(٣) انظر : مجهول . محاورة بين شيعى وخارجى فى شأن الشيخين أبى بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل فى ذلك ، ورقة ٨ مخطوط .
(٤) انظر : مقدمة كتابه عن الخوارج والشيعة .
(٥) انظر : History of the Arabs, P. 181.

كان الظفر فيها لرجال علي. ثم اندلعت الحرب الشاملة والتحم جيشا الشام والعراق، وكانت الغلبة أيضا للعراقيين حتى صار النصر للنهائي وشيكا. غير أن حيلة أحكمها عمرو بن العاص وأقرها معاوية غيرت مسار الأحداث، إذ أمر برفع المصاحف على أسنة الرماح تحكيما لكتاب الله في الظاهر وبثا للفرقة في جيش العراق في الباطن. وقد فطن علي للمكيدة وحذر عسكره من مغبتها، إلا أنه غلب على أمره ورضخ لمشيئة جماعة القراء الذين صاروا فيما بعد زعماء الخوارج، فقبل التحكيم على مضض. كما أرغم أيضا على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلا له في مفاوضة عمرو بن العاص. وكان ما كان من خدعة عمرو لأبي موسى وخلع علي وتثبيت معاوية، وخروج الخوارج. والرواية تدافع عن موقف علي وتظهره بطلا دراميا مخذولا أسقط في يده أمام ضغوط مصدرها خيرة رجاله الذين أرغموه على قبول التحكيم، ثم عادوا يطالبونه بنكثه وهم الذين عرفوا بالخوارج، ثم القبائل اليمنية وزعيمها الأشعث ابن قيس الكندي الذي خيره بين قبول التحكيم وبين تسليمه لخصمه والخروج عليه (١).

أما مصادر الخوارج (٢) — وهي متأخرة نسبيا — فتلقي باللوم على علي، وتتهمه بالتفريط في حقه تحت تأثير من الأشعث بن قيس، وتبرر خروج الخوارج

(١) راجع: نصر بن مزاحم: ص ٢٥٠ وما بعدها، الطبري: جـ٥ ص١٦ وما بعدها، المسعودي: مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠٠ ومابعدها، الدينوري: ص ١٨٩ وما بعدها، الشهرستاني: ص١٠٥، ١٠٦، أبو الفدا: جـ١ ص ١٨٠، ابن عبدربه: العقد الفريد جـ٤ ص ٣٤٨ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل جـ٣ ص ١٢٦ وما بعدها، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٧٤ وما بعدها، الناصري: ورقة ٢٢١ وبعدها.

(٢) انظر: الشماخي: السير ص ٤٦ وما بعدها، البرادي: الجواهر المنتقاة، ورقة ٦٠، مخطوط، الباروني: الأزهار الرياضية جـ ٢ ص ٢٨٩ وما بعدها، دبوز: المغرب الكبير جـ١ ص ٣٤٠ وما بعدها.

بقبوله تحكيم البشر فى حق من حقوقه الأمر الذى يعنى الشك فى إمامته ، ومن هنا عمدوا إلى اختيار إمام منهم هو الله بن وهب الراسبى بعد رفض على إعلان التوبة تكفيرا عن إثمه . ومن مؤرخى الخوارج(١) من ذكر أن عليا استجاب لطلب التوبة ، ثم عاد فنكث تحت تهديد الأشعث . ويخرج بعض الدارسين(٢) من ذلك بأن تواطؤا تم بين الأشعث وأهل الشام لبث الفرقة فى معسكر على وحرمانه من خيرة رجاله الذين صاروا الخوارج . وعموما ، تتلخص وجهة النظر الخارجية فى إلقاء مسئولية التحكيم على على ، ودفع التهمة عن الخوارج الذين ماخرجوا عليه إلا لقبوله إياه . ومن الغريب أن نجد فى بعض المصادر غير الخارجية ــ وبعضها شيعى ــ من النصوص مايدلل على صحة وجهة النظر الخارجية ، فالنوبختى (٣) يقول «خرج الخوارج على على بعد تحكيم الحكمين» «لتفريطه فى حق من حقوق الرعية على الإمام وهو سد الثغور ، فاتهموه بتفريطه فى ثغر الشام بتحكيم الحكمين» على حد قول ابن طباطبا (٤) . ونتلمس عند الرازى (٥) نفس حجة الخوارج فى الخروج وهى أن قبول على التحكيم يعنى بطلان حقه فى الإمامة . كما نجد عند المبرد(٦) ماذكره مؤرخو الخوارج عن مسألة التوبة وقبول على إياها تكفيرا عن إثمه بقبوله التحكيم .

والواقع أن اختلاف الروايات وتضاربها لا ينهض دليلا على الزعم بأن حادثة التحكيم وهم تاريخى محض ، حقيقه نسج حولها من الروايات ماجعل خيوطها تزداد

---

(١) الشماخى : ص ٤٩ .

(٢) Dozy: op. cit p. 37 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج٢ ص ٨١،٨٢.

(٣) فرق الشيعة ص ٢٦ .

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٨٢ .

(٥) اعتقادات فرق المسلمين ص ٤٦ .

(٦) الكامل فى اللغة والأدب ج٣ ص ٨٩٢ .

اضطرابا ، ولكن دراسة تلك الروايات وتحليلها مع إعمال العقل والمنطق قمين بأن يزيح كثيراً من الغموض ، ويكشف عن بعض الحقائق .

وأولى تلك الحقائق أن القتال في صفين لم يجر في صالح أهل العراق على طول الخط كما تزعم الرواية العراقية ، بل كانت الحرب سجالا ، وإن فاق جيش الشام جيش العراق تماسكا ونظاماً وهو أمر يرجح كفته فيما لو استمر القتال . فأهل العراق لم يكن ولاؤهم لنصرة على وحماسهم لقضيته خلصاً ؛ فمنهم من حاربه من قبل في موقعة الجمل ثم أرغموا على مشايعته بعد مصرع طلحة والزبير ، وجلهم من أهل البصرة ، أما الكوفيون ، فقد سئموا القتال من جراء ما لاقوا من أهوال في حرب الجمل . وهو أمر لم يغب عن فطنة عمرو بن العاص حين حث جند الشام على طلب النصر حيث قال « .. إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم وفلوا احدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلى ، قد وترهم وقتلهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل(١) . . » معنى ذلك أن « جيش على كان يضم عثمانية لا يقاتلون معه عن رضى وصدق بل كان منهم المخلص والمدخول ، (٢) أما جيش الشام ، فكان يدين لمعاوية بالولاء ويطيعه طاعة رجل واحد إيماناً بعدالة قضية الثأر لعثمان(٣) . ولا غرو ، فحين التحم الجيشان في صفين انكشف أهل العراق « حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين أو ثلاثمة من القراء [الخوارج فيما بعد] قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض(٤) » واستماتوا في القتال . وقدهال انكسار

---

(١) الطبرى : جـ٤ ص ٥٦٣ .

(٢) طه حسين : الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١ .

(٣) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٥٧ .

(٤) الطبرى : جـ٥ ص ١٨ .

جيش علي رجلا كالأحنف بن قيس حيث صاح مذعوراً « هلكت العرب(١) » ، إذ بلغ عدد القتلى سبعين ألفاً من العسكرين جلهم من جيش علي(٢) .

والحقيقة الثانية أن الدعوة للتحكيم صادفت هوى في نفوس الأكثرية من جيش علي ، بينما رفضت الأقلية مبدأ التحكيم من أساسه . والذي نؤكده أن الأقلية الرافضة كانت تشمل جماعة القراء التي أصرت على مواصلة القتال حتى النصر أو الموت دونه ، وهؤلاء القراء هم الذين صاروا خوارج بعد استجابة علي لرأي الأكثرية(٣) وقبوله التحكيم . وسواء أكان قبول الأكثرية خذلاناً وضعفاً أو عن نية صادقة(٤) في طلب السلم والموادعة أو نتيجة الشك في موقف علي وقبول التحكيم كسراً للشك باليقين (٥) ، فعليهم تقع مسئولية إرغام علي على الرضوخ لمشيئتهم صاغراً (٦).

---

(١) نصر بن مزاحم : ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول ص ١١ .

(٣) المسعودي : ج٢ ص ٤٠١ .

(٤) كانت جمهرة كبيرة من المقاتلة تحبذ وقف القتال حقناً لدماء المسلمين ؛ منهم المخارق ابن الصباح الحميري الذي قال :

أعوذ بالله الذي قد احتجب ... بالنور والسبع الطباق والحجب
أني ذوات الدين منا والحسب ... لا تبكين عيني على من قد ذهب
ليس كمثل الله شيء يرتهب ... يارب لا تهلك أعلام العرب

انظر نصر بن مزاحم : ١٦٣ .

(٥) يتضح موقف جماعة الشكاك من الرواية الآتية « ... جاء رجل إلى عمار بن ياسر أثناء المعركة قائلا : إني خرجت من أهلي مستبصرا في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل ؛ فلم أزل على ذلك مستبصرا حتى كانت ليلتي هذه صباح يومنا هذا ؛ فتقدم منادينا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد ارسول الله ونادى بالصلاة ، فنادى مناديهم بمثل ذلك ، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاة واحدة ودعونا دعوة واحدة وتلونا كتابا واحدا ؛ فادركني الشك . . . » .
انظر : نصر بن مزاحم : ص ١٦٦ .

(٦) ترى الدكتورة سهير القلماوي أن عليا رضي بالتحكيم حقنا لدماء ابنيه الحسن والحسين . انظر : أدب الخوارج ص ١٩ .

ولا تقع تلك المسئولية ألبتة على الأقلية كما زعمت الرواية العراقية ، فما خرجت الأقلية على على إلا لقبول التحكيم ورفض استئناف القتال . كانت جماعة القراء الخارجة مدفوعة فى رفضها التحكيم بسبب سياسى ، فقد رأوا فى استمرار القتال حتى الاستشهاد خيراً من وقوعهم تحت طائلة عقاب معاوية لو جاءت نتيجة التحكيم فى صالحه باعتبارهم ضالعين فى مقتل عثمان وأكثر جند على حماسة لنصرته(١). وثمة دافع آخر دينى ، إذ رأى القراء المتمسكون بأهداب الشريعة فى تحكيم الرجال فى حق منحه الله علياً بعد بيعته بالخلافة خروجاً على الدين وكفرا بنعمة الله ، ومن ثم وجبت توبة على كشرط لعودتهم إليه ، فلما رفض إجابتهم خرجوا عليه نهائياً .

ولدينا من النصوص ما ينفى عن الخوارج شبهة إجبار على بن أبى طالب على قبول التحكيم ، وما يؤكد خروجهم عليه لرفضهم مبدأ التحكيم من أساسه . ذكر ابن حيون — وهو مؤرخ شيعى — فى كتابه « شرح الأخبار » نقلا عن يحيى بن يحيى بن آدم عن حبيب بن أبى ثابت أحد رجال صفين « .. لما دعى عمرو إلى التحكيم ... ومال أكثر الناس إلى الموادعة ، جاءت الخوارج ونحن نسميهم براءة القراء وأسيافهم على عواتقهم ، فقالوا يا أمير المؤمنين أتمنعنا أن نسير بأسيافنا إلى هؤلاء فنقاتلهم ويحكم الله بيننا وبينهم .. » (٢) ويقول ابن قتيبة(٣) « .. لما سمع على قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية وأجاب إلى الصلح ، قام إلى على أناس وهم القراء منهم عبد الله بن وهب الراسبى فى أناس كثير قد أخترطوا

---

(١) Muir : op. cit. p. 281. ولعل فى إنكار عمار بن ياسر التحكيم وإقدامه على الموت بطريقة انتحارية مايرجح ذلك . أنظر : البرادى : ورقة ٦ .

(٢) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ١٠٣ ، مخطوط .

(٣) الإمامه والسياسة جـ٢ ص ٢٠٦ .

سيوفهم ووضعوها على عواتقهم ، فقـالوا لعلى اتق الله فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا لنفنين عدونا أو يفىء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركنت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله والذل فى الدنيا ، فانهض بنا إلى عدونا فلنحاكم إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين . . . » ويقول مؤرخ مجهول(١) « الخوارج هم الذين خرجوا على على بن أبى طالب لما حكم الحكمين ، وذلك أنهم عاتبوه ومنعوه واحتجوا عليه، فتاب وأظهر لهم توبته،فبايعوه بعد التوبة ووازروه وقبلوا منه،ثم خرج عن قولهم إلى التحكيم بعد التوبة والرجعة ... » وثمة قرائن أخرى تؤكد ماذهب إليه،منها رفض ابن عباس تلبية طلب على فى قتال الخوارج(٢) إيمانا منه بصحة موقفهم ، فاكتفى بدعوتهم « لطاعة آل البيت (٣) » . بل نجد فى كتاب على إلى أهل النهروان بعد إعلان نتيجه التحكيم ما ينم عن ندمه واعتذاره واعترافه باستقامة رأيهم ، إذ ورد به « ... فهلموا نعطيكم الرضى ونرجع إلى الأمر الأول الذى طلبتموه منى ونقاتل عدونا وعدوكم حتى يحكم الله بيننا والله خير الحاكمين »(٤) .

ولما كان الخوارج — حقا — براء من تهمة إجبار على على قبول التحكيم ، وإذا كان على فى خطبه فى أهل العراق يبدى غيظا وحنقا عليهم لأنه قبل التحكيم كارها ، ولم يرض به إلا إذعانا ورضوخا لمشيئتهم ، وجب أن نبحث عن دورتلك الطغمة من أهل العراق التى كانت وراء إذعانه ورضوخه .

والمصادر جميعا — سنية وشيعية وخارجية — تشير بأصابع الاتهام إلى قبائل

---

(١) قطعة من كتاب فى الأديان والفرق ورقة ٩٦ ، مخطوط .
(٢) مجهول : كشف الغمة لأخبار الأمة ورقة ٢٨٧ ، مخطوط .
(٣) ابن حيون : شرح الأخبار ورقة ٨٧ .
(٤) كشف الغمة ورقة ٢٨٠ .

كنده وزعيمها الأشعث بن قيس . فمؤرخوا السنة يقرنون دوره بدور الخوارج في الدعوة للتحكيم والحض على قبوله واختيار أبي موسى الأشعري على كره من علي اعتمادا على ثقل مكانته باعتباره زعيما لليمنية في جيش العراق (١) ، حتى ليذكر المسعودي (٢) أن عليا اتهم الأشعث صراحة بأنه صاحب اليد الطولى في مهزلة التحكيم . وفي نفس الاتجاه ينساق المؤرخونه فيصورونه معول هدم وعامل فرقه في معسكر علي ، فتحت تهديداته تخلى علي عن حقه الشرعي في الخلافة بقبوله ذكر اسمه مجرداً من لقب « أمير المؤمنين » في وثيقة التحكيم (٣) ، وهو الذي أوقع بين علي وبين من عرفوا بالخوارج،فحرضه على قتالهم واستئصال شأفتهم بالنهروان كشرط للمضي معه بجنده اليمنية لقتال أهل الشام (٤) وهو الذي خذل عليا بعد النهروان حين أزمع قتال أهل الشام ، فانسحب بجنده إلى الكوفة متذرعاً بالحاجة إلى الراحة والاستعداد قبل المواجهة الحاسمة (٥) .

ومؤرخو الشيعة ينحون نفس النحو مبرزين دوراً مخرباً للأشعث في معسكر علي منذ البداية ، بلغ حد التآمر على حياته (٦) ، وقيل أنه تواطأ مع ابن ملجم في المؤامرة التي انتهت بقتله (٧) .

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) مروج الذهب ج٢ ص ٤١٢ .

(٣) ابن الأثير : ج ٣ ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤) نفسه ص ١٣٧ .

(٥) نفسه ص ١٣٩ .

(٦) قيل أن الأشعث دخل فأغلظ له علي ؛ فعرض له الأشعث بأن يفتك به . عن مزيد من التفصيلات انظر المبرد : الكامل ج٣ ص ٩٨٣ .

(٧) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢١ .

والرواية الخارجية تقول بتواطؤ مسبق بين الأشعث ومعاوية الذى كان يمده ويمنيه (١) ، فكان لذلك أداة له فى بث الفرقة فى جيش على، وحسبه نجاحا فى ذلك تحريض علىّ على قتال الخوارج والوقيعة بهم فى النهروان وحرمانه من خيرة جنده وأكثرهم إخلاصاً لقضيته (٢) .

ومن الدارسين المحدثين من أكد دور الأشعث الشائن هذا ،فدوزى(٣) أطلق عليه « الخائن الأعظم » على أساس أن اتفاقاً تم بينه وبين عمرو بن العاص بقصد خذلان على وإحداث صدع فى جيشه ، والدكتور طه حسين(٤) يرى أن « المؤامرة قد أحكمها الأشعث ماكر أهل العراق وعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم . . . فهى لذلك ائتمار بين طلاب الدنيا من أصحاب على وأصحاب معاوية » .

وإذا كانت تلك الروايات جميعاً تدين الأشعث وتدمغه بالخيانة ، فلا نعدم من المؤرخين من دافع عنه وبرر موقفه، فالدينورى (٥) ذكر أن الأشعث تحمس للتحكيم عن نية صادقة فى حقن دماء المسلمين ، ذلك أن استمرار القتال كان يعنى « بوار العرب وضيعة الحرمات » على حد قول الأشعث نفسه . ويرى الدينورى أن الأشعث كان لذلك أول من فكر فى وقف القتال ، وأن فكرته صادفت هوى فى نفس معاوية ، فأمن قول الأشعث خشية — على « ذرارى أهل الشام من الروم وذرارى أهل العراق من دهاقين فارس » عن نية صادقة كذلك ، عندئذ دعى إلى إشهار المصاحف على أطراف القنا داعياً إلى تحكيم كتاب الله ، فاستجاب على

---

(١) الشماخى : ص ٤٧ ، ٤٨ ، البرادى : ورقة ٦٠ .
(٢) البرادى : ص ٦٩ .
(٣) Spanish Islam. p. 37.
(٤) الفتنة الكبرى جـ٢ ص ٨١ ، ٨٢ .
(٥) الأخبار الطوال ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

للدعوة عن رضى واقتناع؟ فكأن الدينورى لا يرى فى الموقف برمته شيئاً من تدبير أو مكائد. وهى رؤيا أخذها يوليوس فلهوزن (١) حيث قال « ... فالبحث عن خونة لاجدوى له ولامحل » فهو يفند مزاعم الخيانة والتواطؤ على أساس انتفاء دوافعها وأسبابها.

والقول الفصل فى موقف الأشعث — أمام تضارب الروايات — نتلمسه بالبحث فى مقومات شخصية ، الذى يستعرض حياته ، ويستقرىء مواقفه قبل صفين يمكنه — دون لأى — أن يقف على مكامن الخيانة فى طبعه ، رغم ما قيل عن إخلاصه لعلى إبان معركة صفين وصدق عزمه على حقن دماء المسلمين عن طريق الدعوة للتحكيم. فمن مظاهر الولاء المزعوم موقفه البطولى حين أقصى جند الشام عن موارد المياه بصفين حين عولوا حرمان جيش من السقيا (٢) والراجح — فيما نعتقد — أنه كان مدفوعا لذلك بالحفاظ على حياته وحياة رجاله من اليمنية أكثر من إخلاصه لعلى وقضيته وما قيل عن رفضه الأبى الانضمام لمعاوية حين ألح فى استمالته (٣) ، يفسر فى ضوء الخصومة التقليدية بين قومه من اليمنية وبين القيسية أشياع معاوية. كان الأشعث « رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن (٤) » يتطلع إلى مكان الصدارة عن طريق

(١) الخوارج والشيعة ص ٦ — ص ١٣ .

(٢) نصر بن مزاحم : ص ٨٧ ، الدينورى : ص ١٦٩ . وتذكر الرواية أن الأشعث قال لعلى : « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف ، خل عنا وعن القوم فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت . فقال على : ذلك إليك ، فرجع الأشعث فنادى فى الناس : من كان يريد الموت فميعاده الصبح ، فإنى ناهض إلى الماء . فأتاه من ليلة اثنى عشر ألف راجل ، فشد عليه سلاحه مرتجزا :

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا وأمر بغير نصح دبوا إلى القوم بطعن رمح

فلما أصبح ، زاحف أبا الأعور فاقتتلوا ، وصدمهم الأشتر والأشعث فنفيا أبا الأعور وأصحابه عن الشريعة وصارت فى أيديهما » . انظر : نصر بن مزاحم : ص ٨٧ .

(٣) نفسه ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) نفسه ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

الرهان على الجواد الرابح ، وللوقف قبيل صفين كان ينبيء بارتفاع أسهم على خاصة بعد انتصاره فى حرب الجمل . فالأشعث من ثم كان من أولئك النفر الطموحين الذين يغلبون الاعتبارات القبلية والأمجاد الشخصية على الحماس للقضايا الدينية والإخلاص فى نصرة أصحابها .

وسجل حياة الأشعث ينطق بما يؤيد ذلك ويؤكده ، فقد أسلم فى عهد الرسول قسراً حين أعيته الحيلة والقدرة على مناهضة تيار الإسلام الجارف ، ثم ارتد بعد وفاته وألب قومه على أبى بكر وورطهم فى حروب الردة ، لكن أذعن من جديد معلنا توبته التى قبلها أبو بكر على مضض (١) . وفى خلافة عمر ذوى شأنه أمام هيبة عمر وسطوته ، ثم عاد للظهور منتهزا ضعف عثمان ، فزوج ابنته لعمر بن عثمان ، وظفر بولاية أذربيجان (٢) . ولما قتل عثمان وبويع على بالخلافة عزل عن إمارته فرضخ للأمر كارها ، مضمراً لعلى شرا مبيتا . وكان رضوخه — كما قلنا — مداراة لعلى الذى بدأ نجمه فى الأفق صاعدا(٣) . فلما بدأ فى الأفول فترت همته فى نصرته ، وطفق يظهر ما أضمر من أحقاد . ومع أننا نشارك فلهوزن(٤) الرأى فى استبعاد تدبير لعبة التحكيم مع عمرو بن العاص ، إلا أنه لا يمكن الشك فى دوره الفعال فى الدعوة له والحض عليه والترويج له بين القبائل منتهزا فى ذلك موجات الشك ومشاعر الهلع ودعاوى الخذلان جنبا إلى جنب مع صدق النوايا فى إيثار العافية والرغبات الحقيقية فى وضع حد للفتنة الكبرى . وكلها أمور جالت بصدور عسكر على ، انتهزها الأشعث فى تأليب أكثرية الجيش على علىّ لوقف القتال . وهكذا أسهم — سواء عن حسن نية

---

(١) قيل أن أبا بكر ندم على ذلك لأنه كان يرى فى الأشعث «رجلا لا يرى غيا ولا شرا إلا أعان عليه . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة حـ ١ ص ٣٢ .

(٢) نفسه حـ ٢ ص ١٤٩ .

(٣) نصر بن مزاحم : ص ١٤ .

(٤) الخوارج والشيعة ص ٧ ، ٨ .

أو سوء قصد — فى إقرار مبدأ التحكيم وإرغام علىّ على الأخذ به ، وكبح جماح القلة المخلصة الرافضة له واستئصال شأفتها فيما بعد فى النهروان ، فكان فى النهاية معول هدم فى قوة جيش العراق .

الخلاصة — أن عوامل الضعف والفرقة فى معسكر علىّ أفرزت نتائجها الطبيعية وما كان بوسع علىّ وقف تيارها ، فقد أفلت من قبضته زمام الموقف حين غلبته الأكثرية وأرغمته على التفريط فى حقه الشرعى فى الإمامة بقبول التحكيم .

الذى نستخلصه فى النهاية ، براءة القراء الذين صاروا خوارج من مسئولية التحكيم انطلاقا من موقف سياسى ودينى فى آن واحد ، جعلهم يثورون رفضا له لارغبة فيه .

ومما يؤكد ذلك أن أول شعار نادوا به هو « لاحكم إلا لله » ، فقد قيل(١) إن « رجلا من ربيعة من بنى يشكر كان مع علىّ بصفين ، فلما رأى اتفاق الفريقين على الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلا ، وعلى أصحاب على وقتل منهم رجلا ، ثم قتل أصحاب على حتى قتله رجل من همدان » . وقيل (٢) إن أول من حكم كان عروة بن أدية الذى شد بسيفه على الأشعث ابن قيس فأخطأه حين كان الأشعث يقرأ وثيقة التحكيم على قبائل تميم . وذكر (٣) أن أخوين من عنزة هما جعد ومعدان — صاحا فى وجه الأشعث « لاحكم إلا لله » وضرباه فأخطآه ، ثم شدا على أهل الشام حتى قتلا . وفى قول(٤) رابع أن أول من حكم هو سعيد بن محارب من قيس عيلان . وفى رواية أخيرة(٥) أن الحجاج ابن عبدالله المعروف بالبرك كان أول المحكمة .

---

(١) البغدادى : ص ٧٥ ، الإسفرائينى ص ٤٦ .

(٢) الطبرى : حـ ٥ ص ٥٥ ، المسعودى : حـ ٢ ص ٤٠٤ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤١٠ .

(٣) الدينورى : ص ١٩٢ .

(٤) المبرد : حـ ٣ ص ٩٠٩ .

(٥) نفسه ص ٩١٧ .

ومهما اختلفت الروايات فالمحصلة النهائية أن المحكمة أو الخوارج ارتبط ظهورهم برفض التحكيم وليس بالدعوة له كما زعمت الرواية العراقية. وهذا محض اجتهاد متواضع فى قضية أثارت الخلاف بين القدامى والمحدثين، وخفيت حقيقتها حتى على أولئك الذين عاصروها، بل كثر الجدل حولها بين من عايشوها، وهو جدل دار بين تبادل « السباب والشتائم والضرب بالمقارع وتمال السيوف بين الرجل وابنه والأخ وشقيقه » على حد قول المسعودى (١)

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٥.